اجتهادات
الأعمالُ الطيبة

توقفتُ لدقائق خلال مطالعة كتاب الراحل الكبير د. عبدالحليم محمود العالم العابد العارف بالله «ذو النون المصرى» الصادر عام 2004. وهو واحدُ من كتبٍ عدة عُدتُ إليها فى الأسابيع الأخيرة لغرض كتابة ورقة بحثية عن المصادر الفكرية المختلفة للتصوف الذى يحظى باهتمام متزايد الآن فى الدراسات الاجتماعية والثقافية. قال ثوبان بن إبراهيم المُلقَّب «ذو النون المصرى»، وهو أحد أهم روادّ التصوف الإسلامى، إن على من يملك الدين الصحيح أن يُظهر أكبر قدرٍ من التسامح والمغفرة والدماثة. كان يُجيب عن سؤالٍ صعب فاجأه به أحد مريديه، إذ سأله عن التقوى فى الدين المسيحى، ودلالتها على أن أهل الكتاب يدعون إلى أعمال حسنة ومواقف جديرة بالثناء. وكان السؤال تحديدًا عن (القول إن المسلمين هم من لديهم الدين الصحيح).

حاولتُ فهم التكوين الفكرى لهذا العالِم الجليل الذى أبحر فى علوم القرآن والحديث، ودرس الطب والكيمياء والطلاسم والنقوش، أو

الآثار بمصطلحات عصرنا، وكان فى الوقت نفسه ورعًا زاهدًا وأحد روادّ التصوف مع إبراهيم بن أدهم ورابعة العدوية وغيرهما.

كان عددُ معتبرُ من المسلمين حينذاك فى مستهل القرن الثالث الهجرى مهتمين بقضية التقوى، وهم تحديدًا من اشتد خوفُهم من جزاء المعصية والخطيئة، فازداد شعورُهم بحب الله، وتوقُّهم لأن يعرفوا عنه أكثر، فلم يعد زهدُهم لخوفٍ بل استحياءً منه عز وجل. وكان ذو النون أحد أوائل من طرقوا مسألة المعرفة بالله بطريقةٍ عقليةٍ مُنظمَّة تنطوى على منهجٍ فى التفكير وأسلوبٍ فى الحياة. وكان أحدُ أوائل من وجدوا الله فى كل ما حولهم: (ما أُصغى إلى صوت حيوان ولا حفيف شجر ولا خرير ماء ولا دوى ريح ولا قعقعة رعد إلا وجدتُها شاهدةً بوحدانيتك).

وكان أكثرُ ما فكرتُ به، عندما تأملتُ أفكاره، وقلّبتُ جوانب حديثة عن التسامح والمغفرة، هو السؤال عما إذا كان ممكنًا الاهتداءُ إلى الله عبر الأعمال الطيبة وحدها، وأليس هذا ما فعله ملايينُ البشر فى مناطق كانت بعيدةً عن موطن الأديان السماوية ومناطق انتشارها، مثل شرق آسيا؟